الدرس التاسع عشر/ تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

الشيخ -حفظه الله-: إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد، فقد تعرضنا للصنفين الأول والثاني، القائلين بالحكمة والعلة من العبادات، وكلاهما يقابل بعضهم بعضًا، والتمام والكمال بأن تصطفي وتختار الصواب من قول كل منهما، ولذا ختم المصنف رحمه الله تقويم القولين السابقين بقوله: «وكل طائفة من أهل الباطل تركت نوعًا من الحق، فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا»، ثم قال: «فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه»، المذهب الوسط هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وبقي قول ثالث، وهذا القول الثالث قال به الفلاسفة المتألهة، فهناك نوع من أنواع الفلاسفة هم كفار، لكنهم يرون أن العبادة لابد منها؛ لأن النفس فيها قوة شهوانية، وقوى عدوانية تسمى السُّبْعيَّة أو السَّبُعية، مفرد سبع وجمعها سِباع، وهذه القوى عند الفلاسفة المتألهة يرون أنه لا يكبح جماحها إلا الطاعة والعبادة، فهم لا يعملون الطاعة عبادة لله وطمعًا بأجر، وخوفًا من نار وعقوبة، وإنما يفعلونها للوصول بالنفس إلى الكمال البشري، حتى تتخلص من قواها العدوانية، هذه زبدة قول الفلاسفة المتألهة، فهم لا يعترفون بألوهية الله وأنه واحد، هم يقولون: إن الكون -وقد سبق بيان ذلك في هذا الدرس في شرحي لهذا الكتاب-، يقولون: إن القوة الفاعلة هي التي أوجدت هذا الكون، وهذه القوة الفاعلة بعضهم يؤمن بعشرة آلهة، وهم لا يعترفون أن العالَم مخلوق، وإنما العالم موجود بنفسه، ويسمونه القوى الفاعلة، وهم لا يعترفون بالمعاد الجسماني، أن

الإنسان إن مات يعود ويحاسب في يوم البعث، وهم لا يعترفون بالعلم لله الجزئي، وإنما يزعمون أن علم الله تعالى إنما هو علم كلي، بمعنى أنه لا يعلم جزئيات الأشياء، وإنما يعلم الأمور الكلية، وهذه كلها كفر ومروق وخروج من الملة، ومع هذا هم يرون أن النفس البشرية بطبيعتها العدوانية تحتاج إلى العبادة، فهذه الفلسفة لا تؤدي عند الله عز وجل، شيئًا لا تنفعه أبدا، وهم خالدون مخلدون في النار.

ثم بعد هذا القول تطرق إلى قول بعض الغلاة من الصوفية، وهو أسوأ أنواع التصوف، وبلادنا – ولله الحمد والمنة– ليس التصوف فيها هكذا، فكلام الفلاسفة انتقل إلى المتصوفة، فبعض المتصوفة لهم فلسفة في الطاعة والعبادة، نأتي بعد أن نقرأ الصنف الثالث، وهو قسمان، القسم الأول الفلاسفة المتألهة، والقسم الثاني غلاة المتصوفة، الذين ذهبوا إلى أن العبادة إنما هي فقط في محبة الله دون خوف، ودون رجاء.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله تعالى–: «الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النّفوس واستعدادها لفيض العلوم والمعارف عليها وخروج قواها من قوى النّفس السَّبُعيّة والبهيميّة، فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم، فالعبادة تخرجها إلى مشابهة العقول، فتصير قابلةً لانتقاش صور المعارف فيها، وهذا يقوله طائفتان».

الشيخ –حفظه الله–: «الصنف الثالث: الذين زعموا أن فائدة العبادة رياضة النّفوس» بمعنى أن تروض نفسك تنقيها وتخلصها من القوى الشريرة التي فيها؛ «واستعدادها» الاستعداد الذي يأتيك من خلال العبادة، فالصوفية يكون استعدادها من الله، والمتفلسفة الآلهية –لهم صلة بالإله– ، يقولون: استمدادها واستعدادها من العقل الفاعل، يعتقدون أن الدنيا كلها خلقت من المدبر الفاعل على قول الفلاسفة. « لفيض العلوم والمعارف عليها» فتعبد الله عز وجل لتفيض عليك

المعارف، ولتهذب نفسك في هذه العبادة، « وخروج قواها من قوى النّفس السَّبُعيّة والبهيميّة»، النفس السبُعية نسبة إلى السباع، والقوى السبعية في النفس تحب التسلط، وتظهر من خلال الغلبة والقهر، يقولون: الإنسان إن ترك نفسه من غير عبادة –على زعم هؤلاء– يحب التسلط على الناس، ويحب قهرهم، ويحب غلبتهم، وبالتالي لابد للإنسان من الطاعة. والقوى البهيمية تخص الشهوات والرغبات وحب الملذات، فإن ترك الإنسان نفسه فلا يكون عنده هَمٌّ إلا أن ينال الشهوات، كحال الغربيين اليوم، فالغربيون اليوم لا يؤمنون بآخرة، وعدم الإيمان بالآخرة وَلَّدَ في الغرب عجائب، أما المسلم مهما ساء حاله ما دام يؤمن أنه سيبعث وسيُسأل عند الله عز وجل، وأن هناك جنة ونارًا، أمره يختلف من الذي يعبد الله عز وجل وهو لا يعتقد أن هنالك بعثًا جسمانيًّا.

فقالوا «فلو عطلت العبادة لالتحقت بنفوس السباع والبهائم»، فهم يعبدون الله فقط لرياضة هذه النفوس، وهذا يستدعي في الحقيقة كلمة عن الفلاسفة المتألهة، فهم يرون أن الإنسان يجب عليه أن يصل إلى أخلاق وأمور حسنة ومليحة، ويرون أن الإنسان يجب عليه أن يصل إلى الكمال البشري، ويقولون: إن الإنسان له قوتان: قوة علمية، وقوة عملية، والقوة العملية تتلخص في أن تتخلص من الشهوة والغضب، وأيضاً الشهوة في الكمال البشري أن تصل إلى العفة، وكمال الغضب أن تصل إلى الشجاعة على وجه تُحققُ العدل، فتحتاج للعبادة حتى تتخلص من القوى السبعية والبهيمية، وهؤلاء لو أنك سألتهم: ما هي ثمرة العبادة عندكم؟ لقالوا: نريد أن نصل إلى الوجود المطلق. ما هو الوجود المطلق؟ الله، طيب، إذا كنتم تريدون الوصول إلى الله، فكيف نتقرب إليه؟ ما يعرفون!!

يقولون: تمارس العبادة كيفما كانت العبادة، أي نوع من أنواع العبادة في أي ملة من الملل، المهم أن يكون لك نصيب من العبادة لتعود على نفسك بالتربية والتهذيب للخلاص من القوى الموجودة في النفس السبعية والبهيمية، حتى تخلص من الشهوات!

هذا قول للفلاسفة الوصول إلى الكمال البشري على وجه اخترعته العقول، وعلى وجه غير مقبول، العبادة لله عز وجل ينبغي أن تكون على الوجه الذي شرعه، على الوجه الذي يحبه سبحانه وتعالى، فأنت وكل أحد عبدٌ لله تعالى باضطرار، ما من أحد ما من مخلوق في الدنيا من الإنس والجن إلا وهو عبد لله بالاضطرار فيما لا يقدر عليه، فالسعيد من جعل نفسه عبدا لله بالاختيار.

كل البشر فيهم جزء أنهم عبيد لله عز وجل بما هو وفق سنته التي كتبها على الخلق جميعا، فمثلا لا تستطيع الطير؟ فهذا ليس باختيارك، فأنت جسم، وهذا الجسم كثيف، وهذا الجسم ليس لطيفا كالجن، ولا تستطيع أن تطير مثلا، فأنت في بقائك على الأرض وانجذابك إلى الأرض أنت عبد لله، لكن ليست هذه طاعة، وليست هذه عبادة، لكن أنت عبد لله بالاضطرار، فالعبادة التي تؤجر عليها عند الله هي العبادة التي تكون بالاختيار، لذا نحن عندنا العبادة في الشرع لا تقبل إلا بنية، والنية تكون خالصة لله سبحانه وتعالى، فكما أن الإنسان عبد لله باضطرار، فالسعيد أيضا من كان عبدا لله بالاختيار سبحانه وتعالى.

فهذه نظرة للفلاسفة المتألهة الذين لا يرضون ويقيمون وزنًا للقوى التي نشأ هذا الكون عنها، سموها عقلا فاعلا سموها فاعلا مدبرا، سموها الله جل في علاه، إلا أنهم لا يعبدون الله جل في علاه تألهًا لأن الله حق، ولأنك أنت عبد، والله الحق الذي خلقك والذي أوجدك، والذي امتن عليك، فهو حق، فهو سبحانه له حق عليك أن تعبده، لا ينظرون للعبادة على هذا الوجه، وإنما

تعود منفعة العبادة إلى الإنسان، وهذا يلتقي من هذه الجزئية مع قول القدرية المعتزلة في القول السابق، أنهم يعبدون الله عز وجل، والواجب عليه أن يجزينا الجنة، والجزاء بالجنة كما في القول الثاني ليس محضَ تفضُّلٍ علينا، وإنما هو واجب عليه لنا، فهم يفعلون العبادة لمصلحتهم، ويوجبون على الله عز وجل شيئًا ما، وهؤلاء كذلك، هؤلاء يعبدون الله حتى تهذب النفوس فقط، فتجده يعبد الله عز وجل ليهذب النفس، ثم لما تأتي الشهوة تطلق على عواهنها، ولا تقيد بأي قيد.

بفضل الله عز وجل شرعنا لا أقول فقط: صالح لكل زمان ومكان كما يقول الناس، فهذه عبارة صحيحة، لكنها ناقصة، وصوابها وتمامها وكمالها أن نقول: أن الشرع مُصلِح لكل زمان ومكان.

فعبارة: الشرع مصلح لكل زمان ومكان أبلغ؛ فإنه ليس هناك صلاح من غير التزام الشرع، والعقول إذا خالفت النقول من قول الله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم محلُّها المزابل. بعض الناس يعبد الله بالوجدان، بما ينقدح في نفسه، له صلة مع الله، وله علاقة مع الله، والوجدان يملي عليه أشياء!! وهذا مذهب فلاسفة المتصوفة، وسيأتي الكلام عليه بعد قليل.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: «**وهذا يقوله طائفتان، إحداهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع. من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار. والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفيّة الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النّفوس للمعارف العقليّة ومخالفة العوائد**».

الشيخ –حفظه الله–: فذكر المصنف رحمه الله أن القول بأن العبادة إنما هي لتهذيب النفوس، يقول به طائفتان الطائفة الأولى من يقرب إلى الإسلام والشرائع من الفلاسفة القائلين بقِدم العالم، هؤلاء الفلاسفة يسميهم علماؤنا الفلاسفة المتألهة، يعني يقيمون وزنًا للدين، ومع أنهم يقيمون

وزنا للدين يقولون: إن العالم قديم ليس له خالق، لا يعترفون بأن الله عز وجل خالق كل شيء، فهذه عقولهم، والعقل إذا ابتعد عن الشرع ضل وأضل.

رحم الله أبا قلابة الجرمي عبدالله بن زيد التابعي، له مقولة تكتب بماء الذهب، ذكرها الإمام الذهبي -رحمه الله تعالى- في «السير»، قال: «من قلت له: قال الله قال رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال لك: دع عنك هذا، وهات العقل، فاعلم أنه أبو جهل»، ثم قال: «من قلت له: قال الله، قال رسوله، فقال لك: دع عنك هذا، وهات الذوق والوجد، فابطحه واخنقه، واقرأ عليه أية الكرسي فإنه شيطان»، إذا قال لك: هات الذوق والوجد؛ حدثني قلبي عن ربي، أنتم تأخذون العلم من الكتب، أنا آخذ العلم من الله مباشرة، أنا عندي وجدان، قال: «فابطحه واخنقه، واقرأ عليه أية الكرسي فإنه شيطان»، فالأصل هو قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، المؤمن إذا قضى الله ورسوله أمرًا ما، ليس لهم الخيرة، بل: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}، أن تستسلم تماما، وأن ينشرح صدرك لقول ربك، قول مولاك، قول الذي خلقك، سبحانه وتعالى، فتسلم تسليما لهذا القول.

قال المصنف رحمه الله: «من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار»، يعني هم مشركون، ويقولون: إن هذا العالم وُجدَ بنفسه، وهذا المراد من قوله «عدم الفاعل المختار»، ومع هذا هم يرونه من العبادة، لكن لا يرون العبادة حقا لله، وإنما يرونها من أجل أن يهذب الإنسان نفسه، فالعبادة تعود على النفس بالعبادة.

أهل الحق وأهل السنة يرون أن العبادة تهذب النفس، لكن المنطلق من العبادة التأله والتعبد، لذا الله جل في علاه الإله، ما معنى الاله؟ المعبود، والتأله له، فعلاقتنا مع ربنا، لأن ربنا خلقنا، ولأن

ربنا تفضل علينا، ولأن ربنا أحسن إلينا، ولأن ربنا سيحاسبنا، ولأن ربنا نرجو رحمته، لأن ربنا نحبه، لفضله سبحانه وتعالى، فنحن نتأله إليه؛ وهو حق له علينا، وهذا الحق يهذب النفس، ويزكيها ويربيها، والنبي بعث صلى الله عليه وسلم يعلمنا ويزكينا، لكن فرق بين أن تكون العبادة أصلا لتهذيب النفس بأي طريقة من الطرق؛ هذا غلط.

طيب أيها الإخوة؛ ما أكبر نعمة لله علينا؟ ما أكبر نعمة لله على الخلق؟ لا تظن أن النعم الله محصورة في الأكل والشرب والمال والدنيا. من ظن أن الله جل في علاه نعمه علينا في المال والطعام والشراب؛ هذا دابة من الدواب لها شهوات.

أكبر نعمة لله عز وجل علينا أن الله أذن أن نعرفه؛ وأن الله أذن كيف نعبده.

العقول البشرية السديدة السليمة تصل إلى أن الله حق؛ وتصل إلى أن الله واحد؛ لكن لو أتيت بعقول أذكى الخلق منذ أن خلق الله آدم حتى وقتنا، العقول السديدة السليمة لا تستطيع أن تعلم ماذا يحبه الله؟ كيف نعرف ماذا يحبه الله؟ من خلال النبوة، من الأنبياء.

ما يحبه الله يختلف من وقت لوقت، وفي الملة الواحدة؛ ويختلف من ملة لملة، قالوا في ملة إبراهيم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء كانت الصلاة في وقتين، الصبح والعصر، صلوا مرتين، من كان يصلي مرتين الله يحبه، ويرضى عنه، أما لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فرضت الصلاة قبل المعراج؛ وفي المعراج وقتت الصلاة؛ قال الله تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}، {كتابًا} فرضًا؛ {موقوتًا} إلى خمسة أوقات؛ فالله فرض على النبي صلى الله عليه وسلم خمسين صلاة، فلما رجع مرَّ بموسى عليه السلام؛ والقصة في الصحيحين، قال: «ماذا فرض الله عليك؟ قال: خمسين، قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف، إني قد بلوت الناس»؛ هذه أصل التجربة الدعوية، «إني قد بلوت الناس»، وأنت لم تبلوهم بعد، فارجع إلى ربك فاسأله

التخفيف، فخفف الله عنا إلى خمس في الصلاة في العدد، وخمسين في الأجر، الحسنة بعشر أمثالها، وأصبحت خمسة، فعلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى نبي الله وكليمه موسى بن عمران الصلاة والسلام، جعله الله سببا في أن يرشد نبينا محمدًا إلى أن يسأل الله التخفيف في الصلاة.

فأعظم نعمة لله على العباد أنه أذن لك أن تعرفه وأن تناجيه بالطريقة التي يحبها هو سبحانه وتعالى، العقول البشرية مستحيل أن تعرف خمس صلوات، والصلوات إلى جهة معينة، وبشروط معينة، وبطريقة معينة، لا يمكن للعقل أن يعرف هذا، وأن الصلاة بعدد معين؛ صلاة الفجر ركعتين، الظهر أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، لا يمكن للعقل أن يدرك هذا، وكل ركعة ماذا تفعل بها.

فأعظم نعمة ومنة لله على عباده، أنه أذن للبشر أن نعرفه ونعرف كيف نعبده كما يحب.

من نحن؟ ماذا نساوى عند الله عز وجل؟ هل ينتفع الله تعالى بعباداتنا؟ لا والله، العبادة نفعها إلينا، لكن الله جل في علاه هو الذي أذن لنا بأن نعرفه، سبحانه وتعالى.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: «**وهذا يقوله طائفتان: إحداهما: من يقرب إلى الإسلام والشرائع. من الفلاسفة القائلين بقدم العالم وعدم الفاعل المختار. والطائفة الثانية: من تفلسف من صوفيّة الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النّفوس للمعارف العقليّة ومخالفة العوائد**».

الشيخ –حفظه الله–: «مخالفة العوائد» مخالفة العادة التي تحكمت فيك، فالعبادة جاءت حتى تتحرر من العادة التي أصبحت أو كدت أن تصبح عبدًا لها.

سمعت شيخنا الألباني رحمه الله يقول عبارة جميلة، كان رحمه الله يردد عبارة يقول: «خير عادة ألا تأسرك عادة»، أن تبقى حرًا، ألا تبقى مأثورا لعادة ما.

الفلاسفة يقولون هذا، لذا هذا صنف من الناس لا يحبون العلم، لأنهم يعتقدون أن العبادة تعود إلى تهذيب النفس، والعلم يعوقهم، ولا ينتبهون إليه، ويعملون على إتلاف الكتب، فيقولون: العبرة بالعبادة هي تهذيب النفس، والكتب عائق من العوائق، وهي عائق عن تهذيب النفس!!

يزهدون الناس في العلم، تعرفون الإخوة الذين يجاورون المساجد ويدعون الناس، ويصلون بغير استحضار لهذا الأصل وأهمية العلم، هؤلاء معروفون عند الجميع، كنا في مجلس أنا وإخواننا المشايخ، وبعضهم توفي رحمه الله شيخنا الشيخ علي وأخونا الشيخ أبو أنس، فقلت: بعض إخواننا من طلبة العلم يتأثرون بهؤلاء، فنعمل على أن يتعلموا ومستعدون أن نذهب إليهم وأن نعلمهم في مدينة الحجاج، بشرط أن الإنسان لا يخرج إلا بعد أن يتعلم، تخرج وأنت جاهل؟! فاقترحت الفكرة على أمرائهم، فقالوا: هذا القرار خطير، وهذا يعني أمر يحرف مسار الدعوة، وهذا القرار يحتاج إلى أن نشاور الأكابر، أين الأكابر؟ قالوا: في الهند وباكستان، طيب، أنا سأبقى أتابع حتى أعرف القرار، وبقيت متابعًا سنة وسنتين وثلاثة، وجاء القرار، قالوا: العلم كالأداة، كالسكين والسيف، والسيف والسكين إذا وضعته بين أيدي الجاهل يضر، قلنا: نحن الآن لا نضعه مع الجاهل، فأنتم تحصلون العلم، ثم تدعون الجاهل. قالوا: العلم هذا الآن يضرنا! صدقوا، العلم يضر، صحيح؟ العلم يضر المبطل المصر على بطلانه وطريقته، العلم يضره، العلم فضاح، العلم لا يحابي أحدا، العلم لا أمير فيه إلا الحجة والبرهان، العلم لا يعترف بالإمارات البشرية، العلم حَكَم: هذا صواب، وهذا خطأ، بغض النظر عمن قال، العلم الحجة والبرهان، قال الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

صنف هؤلاء الفلاسفة الصنف الأول والثاني المذكوران عندنا ها هنا لا يحبون العلم، ولا يحبون الكتب، ولا يحبون الطلب، ويعتبرون أن هذه الكتب هي حواجز وحواجب عن الإشراقات والإضاءات القلبية التي تأتي من الطاعة والعبادة، وتعود دون أن يصل الإنسان إلى المراد. هكذا يرون العلم، فهذا الصنف لا يحب العلم، لماذا؟ لأنه يعتقد أن العبادة جاءت فقط لتهذيب النفس، فكيفما أديت العبادة فلا حرج على أي ملة من الملل ليس هناك حرج، المهم أن يكون لك نصيب من العبادة التي تهذب نفسك!!

هل العبادة هكذا في الشرع؟ معاذ الله، شرعنا العبادة لها شرطان: الإخلاص والاتباع، أي عبادة من غيرهما لا تقبل.

هذه العبادة على رأي الفلاسفة ومن وافقهم، بنية تهذيب النفس فقط، فأنت غير مخلص فيها، فهي مردودة أصلا، يعني إذا كانت العبادة من أجل أن تهذب نفسك، وليس لله، فهي تخالف الإخلاص، والعبادة التي تخالف الإخلاص مردودة، فالأصل في طاعتك وعبادتك لله عز وجل، أن يتجه قلبك لربك، ولا تنوي نية غير رضاه، لكن إن حصلت فوائد من العبادة وأنت في قصدك، لا تتجه إلا إلى ربك، فلا حرج، وهذا الذي سماه الإمام الشاطبي وأقام كتابه الموافقات -وهو من أعظم كتب الإسلام- على «التشريك في النية».

إذا كان قلبك خالصا لله، فاستفدت من العبادة ما شئت، فلا حرج، يعني استفدت من العبادة أن الكل يزوجك، الكل يحترمك، الكل يسأل عنك، إذا صار لك مصلحة الكل يأتيك، لا لأنك فلان، بل لأنك صادق، ولا تكذب، فلا حرج في هذا، هذه مصالح بشرية؛ لذا قال الله عن الحج {فيه منافع للناس} ما فيه حرج، لكن قلبك في العبادة متجه إلى أين؟ إلى الله، وإلى رضا الله، ما بعد هذا ما يأتيك من خير لا حرج فيه.

أما إذا كان شخص يأتي للمسجد من أجل أن يكثر زبائن دكانه، هذا ضال مضل، هذا مجيئه للمسجد هذا فيها شرك، لكن ما أحد يفعل هذا -بفضل الله عز وجل-، لكن الفلاسفة وفي صنف من الناس يرون أن طلب العلم حواجب كثيفة تحول دون أن يكون العبد مع الله!! إذا أردت أن تعرف كل مسألة وما دليلها، وتفصل وتدقق في كل مسألة، فأنت محجوب، وغير واصل، وأنت في ضلال!! هكذا ينظرون إلى مَن يطلب العلم، ومَن يُرغِّب الناس في طلبه.

فالمسألة ليست مسألة خوافق، بل هي مسائل قائمة على أصول، وهذه الأصول علمية، فالإنسان ما دام متلبسا بأصل فاسد ليس بصحيح، فالفساد سيبقى يقوم فيه، وسيبقى غارقًا في الظلمات شعَرَ أو لم يشعر.

هذه مسائل ينبغي أن تنتبهوا لها، وأن تحرصوا عليها.

قال المصنف رحمه الله: «الطائفة الثانية: من تفلسف من صوفية الإسلام»، قربوا للإسلام، وأحسن شيء عند الفلاسفة المتألهة إذا عرفوا الله عز وجل، أحسن لفظ عندهم هو ما يرددونه بقولهم عن الله: «واجب الوجود» يعني يقولون: إن هذا العقل لابد أن يصل إلى أن الله عز وجل واجب الوجود. وهم كما قلت: ليسوا موحدين، وعندهم شركيات، وشركياتهم تكمن في قولهم بأن العالم قديم، وأن العالم ليس بمخلوق، والله ليس هو الخالق له، ولا يعترفون بالميعاد الجسماني، ويقولون: إن علم الله -جل في علاه- علم كلي، وليس بعلم جزئيٍّ.

طبعًا من الأشياء التي لا بد أن تُذكر، أن بعض من يعرف العلم يقيم أدلة على مذهبه، ويتعلق بالأدلة، ولذا طلبة العلم الذين لم يتحرروا من الموروث، ومن العادات التي عليها مَن يسير معهم، وهي حاكمة، هؤلاء أسوأ نوع من أنواع طلبة العلم، بل قد يكون بعض الضالين خيرًا منهم، لأنهم أصبحوا [شماعات/ علاقات] لإيجاد مسوغ شرعي للوجود، يعني انظر إلى هؤلاء المتفلسفة،

وهؤلاء الصوفية وولاتهم الذين يرون أن النبوة مكتسبة، تدرون من يقول النبوة مكتسبة من الأعلام؟ ابن سينا، يقول في كتبه: إن أباه وإخوانه كانوا من القرامطة، من العبيديين، الذين يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله هو الرب هو الإله، ثم أراد ما وافق عليه هو، فيرى أن النبوة مكتسبة.

هؤلاء الذين يضلون، هل يوجد طلبة علم عملهم أن يبحثوا لهم عن تأويلات وأدلة؟! موجود، هؤلاء أسوأ خلق الله، مع أنهم يسمون تسمية طلبة علم.

يقولون: كم من ولي خاض بحارًا وقفت الأنبياء في ساحله، فبعض الأولياء أحسن من الأنبياء!! إذا سئلوا عن الدليل، قالوا: الخضر وموسى، فالخضر ولي، وموسى -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- نبي، وأيهما أحسن؟ كما القصة في سورة الكهف، أيهما أعلم؟ قالوا: الخضر، قالوا: فقد يكون الولي أفضل من النبي! هذا ضلال، وقائم على فساد أصل، وهذا الأصل الفاسد هو القول بأن الخضر ولي. والحق أن الخضر نبي له شريعة، وموسى نبي له شريعة، وفعل الخضر ما يوافق شريعة الله التي أوحاها إليه، وهي تخالف الشريعة التي أوحاها الله إلى موسى عليه السلام، فالخير كله في الشرع.

وأنا ذكرت لكم في هذا الدرس وأمتحن أعرف كيف استيعابكم، فأسأل: أيهما أفضل أن نستقبل في القبلة الكعبة أم بيت المقدس؟ وقد جاوبت على هذا في مثال عاجل، في كلمة في درس سبق، فهو كما جاء في صحيح البخاري عن البراء بن عازب: «صلينا إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر»، فلذلك ترى العلماء الربانيين يعظمون الشرع وتقرأ ذلك في نصوص كلامهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أفاض فيه بديع؛ يقول: «في وقت توجهنا لبيت المقدس، فالتوجه لبيت المقدس أفضل، ولما حولنا الله إلى الكعبة المشرفة، أصبحت الكعبة المشرفة أفضل»، فهؤلاء العلماء يحبون الله، نحن عبيد وهو السيد، فما شرعه الله لنا هو الأفضل.

ومن هذا نستفيد أنه ليست العبرة بالمثال هذا فقط، وإنما العبرة أن تفهم أن الأفضل دائما هو ما في النصوص مما شرعه الله في الوقت الذي شرعه فيه، وأن الخير والبركة في أن تمتثل لأمر الله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله: «والطائفة الثانية من تفلسف من صوفية الإسلام ويقرب إلى الفلاسفة، فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات» من زعم أن العبادة رياضة، يعني ممكن أن يتساهل في شروطها، ممكن واحد يقف في الصلاة، وهو نائم غير متوضئ، المهم حسب الرياضة، يقول لك: أنا تغسلت، لست نجسا، فماذا يمنع من صلاتي؟! كلام عقلي، كلام فلسفة، لا وزن له في الشرع، هذا الكلام من أبطل الباطل؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم «لا صلاة إلا بوضوء»، فلو كنت مغتسلا نظيفا ولكن لم تتوضأ، فلا تقبل لك الصلاة، أما على قولهم «فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النّفوس للمعارف العقليّة ومخالفة العوائد»، تركوا العلم الشرعي، وأخذوا بالفلسفات، عبدوا الله تعالى بترويض النفس، ولأجل تحصيل الإلهامات والعلوم، وهؤلاء بلا شك درجات، ليس كلهم سواء، وهذا المذهب الذي يرى أن العبادة من أجل ترويض النفوس هذا مذهب يتطور، لا يقبل أن يقف عند حد معين، أردأ أصحاب هذا المذهب وهم كفار باتفاق علماء المسلمين، هم أصحاب القول بوحدة الوجود، الذين يقولون: لا فرق بين الخالق والمخلوق.

التقيت مع أخ سوري -رحمه الله-، رجل كبير وعاقل، له بعض الكتب، فمن اللفتات التي أعجبتني وهو يتكلم يقول: الملحدون الذين ينكرون الخالق مع القائلين بوحدة الوجود هُم همْ، القائل بوحدة الوجود يؤمن بأن كل ما يراه هو الله، والشيوعي يقول: ما أراه أؤمن به، وما لا أراه لا أؤمن به!!

فهؤلاء الذين يرون هذا درجات، والحكم على الكل الشرع (قال الله، قال رسول الله)، فمن وافق (قال الله، قال رسوله) فعلى العين والرأس، ومن خالف (قال الله، قال رسوله) فهذا والعياذ بالله تعالى يحكم عليه بمقدار مخالفته.

وقلنا: أردأهم القائلون بوحدة الوجود، فبعض أصحاب القول بوحدة الوجود، ينكر على الأنبياء أنهم نهوا الناس عن عبادة الأصنام، وقالوا: هذا لا يعبد الصنم، لأن الله في كل مكان! وهذه عبارة للأسف روجها بعض الناس بأمثلة عقلية باطلة.

قال بعض المقولة كلمتهم في هذا الزمان ممن مات، وقال على جهل رحمه الله، وقد يكون الإنسان عالمِا في باب جاهلا في باب، وهذا كلام الغزالي في «المستصفى»، رحمه الله تعالى. قالوا: أين الله؟ قال: أرأيتم اللبن، والزبدة في اللبن، قال: تعرف أين الزبدة في اللبن؟! قال: لا، قال: هكذا الله في الكون، الله مثل الزبدة في اللبن، يعني أن الله في كل مكان!! معاذ الله، هؤلاء فلاسفة الصوفية مذهبهم يتطور، ولا ينتهي لحد!!

قراءة الطالب: قال المصنف رحمه الله: «**ثمّ مِن هؤلاء من لا يوجب العبادة إلاّ بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقى متحيرًا في حفظ أوراده والاشتغال بالوارد منها. ومنهم: من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها**».

الشيخ –حفظه الله–: هؤلاء قالوا: نعبد الله من أجل أن نهذب أنفسنا. وهنا مسألة مهمة في الأخلاق ينبغي أن نعرفها: هل الخلق أمر جبلي، أم هو مكتسب؟ نحن نتكلم عن رياضة النفوس، فهل لها أثر على أخلاق الإنسان؟ فيه مذاهب، وأقتصر على الصواب، فأقول وبالله أستعين سبحانه وتعالى: الإنسان فيه أخلاق جبلية، وفيه أخلاق مكتسبة، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس وهو كبير قومه بني عبد القيس، جاءوا للنبي صلى الله عليه وسلم من البحرين

مسلمين، يحبون النبي صلى الله عليه وسلم، فلما وصلوا المدينة دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم على عجلة بفوضى؛ يسعون لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم، أما الأشج وهو كبيرهم، وسمي الأشج لشجة كانت في وجهه، لما نزل المدينة، ذهب فاغتسل، ولبس أحسن ثيابه، وتطيب، ودخل متأخرًا، فدخل على حال وهيئة تخالف هيئة البقية الذين معه، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم أحبه، وقال له: «إن فيك خلتين أو خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة»، أنت حليم ومتأنٍّ، إذًا الحلم والأناة أخلاق، فبعض الناس يحتاج أن يهذب نفسه، وأن يروضها حتى يحصل العلم، بعض الناس مثل حبة البشار على النار، أي حاجة تصيبه يثور، ليس له نصيب من الحلم والأناة!

فالناس يتفاوتون في الأخلاق، فبعض الأخلاق غريزية مثل هذا الرجل: الحلم والأناة، «إن فيك خصلتين...»، ويقول ابن مسعود: «إن الله قد قسم بينكم أخلاقكم، كما قاسم بينكم أرزاقكم»، فالأخلاق كما في أقوال العلماء منها المكتسب، ومنها الغريزي؛ لذا هؤلاء يقولون: في النفس قوى تحتاج لتهذيب، فالعبادة تهذبها.

والإنسان يمكن أن يهذب نفسه، فيصبح الخلق في النفس، المكتسب يتغير، وتظهر تغيراته، فالآن تأتي مسألة: هؤلاء الذين يوجبون العبادة من أجل تهذيب النفس، إذا ما هذبت نفوسهم، هل يحتاجون للعبادة، أم لا فائدة للعبادة بعد ذلك؟ فهنا لخص كلام المقريزي رحمه الله قال «ثمّ مِن هؤلاء من لا يوجب العبادة إلاّ بهذا المعنى، فإذا حصل لها ذلك بقى متحيرًا في حفظ أوراده والاشتغال بالوارد منها»، فهل يواصل العبادة والطاعة، أم انتهى بالوصول لتهذيب الخلق ولا يحتاج إلى العبادة، فيترك الطاعة والعبادة!!

قراءة الطالب: «**ومنهم: من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها، وهم صنفان – أيضًا –أحدهما: من يقول بوجوبها حفظًا للقانون، وضبطًا للناموس. والآخرون: يوجبونها حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرّج النّفس بمفارقتها إلى حالها الأولى من البهيميّة**».

الشيخ –حفظه الله–: هؤلاء صنفان، وهم يتعلقون بمعانٍ مغلوطة للآيات، ويجمع هذه المعاني المغلوطة: الجهل باللغة، فمثلا الذين يزهدون الناس في العلم، ويرون أن العبادة لابد منها من أجل ترويض النفس، منهم من يقول: العبادة تروض النفس وتغنيك وتكفيك عن العلم، ويستدلون بقول الله عز وجل {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}، لماذا تجلس تقرأ، وتتعب حالك، فيا أهل اللغات علمونا: ما معنى الآية؟ وما هو الخلل في هذا الفهم؟

قوله تعالى {وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} ليس جواب التقوى، فإن الآية {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}، مرفوعة على الإخبار، وليست مجزومة في جواب الطلب (ويعلمْكم الله)، ف {يعلمُكم} ليس جوابًا للتقوى، من اتقى الله يعلمْه الله، ويكون الأثر المترتب على تقوى الله العلم، لو كانت الآية كما يقولون الله (واتقوا الله ويعلمْكم الله)، لكن المعنى أن الله يقول: واتقوا الله، فإن اتقيتم الله، ولا يمكن لكم أن تتقوه حتى تتعلموا، فكيف تترك المحظور وتفعل المأمور سواء كان مأمورا طلبا جازما، أو غير جازم، أو محظورا في الترك جازما أو غير جازم، وأنت لا تعلمه، فالآية {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}.

وأحيانا للشياطين دور في الفهم، تعلمون الشيخ عبد القادر الجيلاني إمام من أئمة أهل السنة، من كبار أهل العلم، له كتاب بديع اسمه «الغنية»، هذا كتاب لم يطبع طبعة كاملة، طبعت طبعة منه في العراق في ثلاث مجلدات، وفيه كلام شديد على أهل البدع، وتكلم عما وصل إليه الناس من الباطل، وفند الباطل، وتواصلت مع طابع الكتاب، أحد من ذرية الشيخ عبد القادر في

بغداد، وفي مكتبة في بغداد، اسمها القادرية، في خمس نسخ خطية لهذا الكتاب، لهذا الكتاب لعبد القادر ورجوته أن يطبع الكتاب كاملا، فأبى!! قلت: أظهروا فقط الملزمة التي أسقطتموها، وضع كتاب الغنية في العراق في الوقت الذي تم فيه صلح بين العراق وإيران، فهذا الصلح ترتب عليه أن يطبع الكتاب، وأن يلغى كلام الشيخ عبد القادر عن الرافضة، وهو حجم لا بأس فيه، الكلام ساقط، قلت: أنت من ذريته، فاطبع الكتاب، اطبع الملزمة فقط على النت، قال: لا أستطيع، لا سيما هذه الأوقات في بغداد.

فالشيخ عبد القادر إمام كبير من الأئمة رحمه الله تعالى، يعبد الله عز وجل على بصيرة، عالم، انظروا الآن يقول هذه القصة، الشيخ عبد القادر في الصلاة قيام الليل يقول: رأيت عرشا عليه نور وهيبة، فقال لي: يا شيخ عبد القادر، لقد رفعت عنك التكليف، اسجد لي.

مثلا شخص جاهل يقرأ قول الله تعالى {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، رأيت اليقين، رأيت الله بعرشه، وعليه هيبة وعليه نور!!

لكن الشيخ عبد القادر هو يعلم أن الله ما رفع التكليف عن محمد صلى الله عليه وسلم وهو أحب الخلق إليه، ولم يرفعه عن أبي بكر وعن عمر وعن عثمان وعن علي وعن الصحابة.

يقول الشيخ عبد القادر: قال لي: لقد رفعت عنك التكليف، اسجد لي. قال: فأتممت صلاتي، ثم تعوذت بالله، وقلت: اخسأ، أعوذ بالله من الشيطان، أنت شيطان رجيم، قال: فاسود، ثم قال لي: يا شيخ عبد القادر، لقد نجوت بعلمك، قال الشيخ عبد القادر: اخسأ، لقد نجوت برحمة الله وفضله، وليس بعلمي.

هذا العالم الرباني، هكذا يصنع.

قراءة الطالب: يقول المصنف -رحمه الله- عن هذه الطائفة وصنفيها: «ومنهم: من يوجب القيام بالأوراد وعدم الإخلال بها، وهم صنفان - أيضًا:- أحدهما: من يقول بوجوبها حفظًا للقانون، وضبطًا للناموس. والآخرون: يوجبونها حفظًا للوارد، وخوفًا من تدرّج النّفس بمفارقتها إلى حالها الأولى من البهيميّة».

الشيخ -حفظه الله-: يقولون: لو تركنا هذه العبادة التي صنعناها حتى نروض بها نفوسنا، فإننا إن تركناها عادت حالنا ونفوسنا إلى قواها السبُعية والبهيمية، فحتى لا نرجع نبقى مستمرين عليها!

ليس لأن الله له حق علينا، وأننا نتأله ونتعبد الله عز وجل بطاعاتنا إليه. وإنما يستمرون على العبادة لئلا تعود نفوسهم سبعية أو بهيمية.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: «فهذه نهاية أقدامهم في حكمة العبادة وما شرعت لأجله، ولا تكاد تجد في كتب المتكلمين على طريق السلوك غير طريق من هذه الطرق الثلاث، أو مجموعها».

الشيخ -حفظه الله-: المراد هذه نهاية سير الفلاسفة ومن تأثر بهم من غلاة الصوفية في طريقهم لعبادة الله، هذه آخر ما يصلون إليه، أن العبادة إنما ليبقى متحكما بنفسه مروِّضًا له، فعلى طريق السلوك لا تجد (قال الله، قال رسول الله)، لا تجد الأدلة النقلية، لا تكاد تجد في طريق السلوك غير هذه الطرق لهم، وهي طرق متفلسفة، وفي كتب هؤلاء الفلاسفة: الطريق الأول: الجبرية، نفاة العلة، أو الطريق الثانية: القدرية الذين يرون أن في العبادة مصلحة للعبد، وليس لأن لله حقًا على الخلق، والطريق الثالثة إنما هو طريق أن تلتزم العبادة من أجل أن تهذب نفسك. فلو نظرت في كتب الفلاسفة فتجد هذه الطرق الثلاثة.

والطريق الرابعة: طريق مذهب أهل السنة والجماعة، طريق ليست مذكورة عند هؤلاء، والحق باطل لا يلتقيان، فمتى التزم الإنسان الباطل باع الحق، ومن التزم الحق ابتعد عن الباطل، كالثمن والسلعة، لا يجتمعان، إذا اشتريت سلعة شراء، فمستحيل أن يجتمع عندك الثمن والسلعة، فلابد من المبادلة، فهكذا الحق والباطل.

فهؤلاء لم يتكلموا عن الطريق الرابع طريق أهل السنة، وإنما يتكلمون عن الغاية والحكمة من العبادة، فهؤلاء المتفلسفة يذكرون الطريق الأول، والطريق الثانية، والطريق الثالث.

والطريق الرابع هو خاص بمن يحب الله عز وجل، وهو قول المسلمين قاطبة، وهو الذي جاءت به الأنبياء، وهو الذي أنزله الله تعالى في شرائعه جميعا.

أخذنا الوقت، وكان في بالي أن نشرح الصنف الرابع، فهذا إن شاء الله في الدرس القادم.

هذا والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.

لكن حتى نسبق الوقت بقليل، أنا وعدتكم بإجازة، فمن أراد الإجازة أحتاج اسمه، وهذا الكلام ليس خاصا بإخواني وأحبائي الذين أراهم، وكذلك إخواني وأحبائي الذين يسمعوني، فقد اتصل بعض الإخوة من بعض البلاد يريد الإجازة. فنحتاج من إخواننا الحضور أخًا يأخذ أسماءهم، ويعطيني الأسماء، اطلب الإجازة بالاسم الذي تراه أنت، بالاسم الذي تراه، باسمك، بكنيتك بأي اسم تريده، أعطني اسمك الذي تحب أن يكتب لك وتجاز به.

وإخواننا الذين يستمعون من غير الحضور، ممن حضر أغلب دروس هذا الشرح لهذا الكتاب «تجريد التوحيد المفيد»، أحتاج لأسمائهم، وإخوانا في مجموعة «الدرر الحسان» يرسل الأسماء إليهم، وهم يعلنون عن الاسم، أو عن الهاتف الذي يرسل الاسم عليهم، أحتاج إلى قائمتين، قائمة من الحضور، فواحد من الحضور يتبرع بأخذ الأسماء، وقائمة من الإخوة في الخارج، ينبه إن شاء الله في موقع «الدرر الحسان» على اسم معين، وتجتمع عندي الأسماء، ثم أجيزكم، وأرجو الله

تعالى أن يعين على ذلك بعد أن نفرغ من الكتاب، والكتاب نفرغ منه إما درسنا القادم أو الدرس الذي يليه.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

